٩ — قاعدة فى أن الشريعة أمية، وأنه لا بد فى فهمها من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم

قال الشاطبيّ فى الموافقات : هذه الشريعة المباركة أمية ، لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح . ويدل على ذلك أمور .

أحدها : النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »(١) . وقوله : « فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ . الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ »(٢) . وفى الحديث : « بعثت إلى أمة أمية(٣) » ، لأنهم لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين . والأميّ منسوب إلى الأم وهو الباقى على أصل ولادة الأم ، لم يتعلم كتاباً ولا غيره . فهو على أصل خلقته التى ولد عليها ، وفى الحديث : « نحن أمة أمية لا نحسب

(١) [٦٢ / الجمعة / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٣ ـ كتاب أبواب القراءات ، ٩ ـ باب ماجاء أنزل القرآن على سبعة أحرف .

عن أبىّ بن كعب قال : لقى رسول الله ﷺ جبريل فقال : يا جبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط . قال : يا محمد ! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

ولا نكتب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا»(١). وقد فسر معنى الأمية فى الحديث : أى ليس لنا علم بالحساب ، ولا الكتاب، ونحوه قوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ »(٢). وما أشبه هذا من الأدلة المبثوثة فى الكتاب والسنّة ، الدالة على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية . لأن أهلها كذلك .

والثانى : أن الشريعة التى بعث بها النبىّ الأمىّ إلى العرب خصوصا ، وإلى من سواهم عموما ، إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية ، أوْ لا . فإن كانت كذلك ، فهو معنى كونها أمية أى منسوبة إلى الأميين . وإن لم تكن كذلك ، لزم أن تكون على غير ما عهدوا . فلم تكن لتتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهَدُ ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها . فلا بد أن تكون على ما يعهدون . والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية ، فالشريعة إذًا أمية .

والثالث : أنه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزا ، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هذا على غير ما عهدنا . إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام ، من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف . فلم تقم الحجة عليهم به. ولذلك قال سبحانه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ . . . »(٣) فجعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا ،

(١) صحيح البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ لا نكتب ولا نحسُب .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ أنه قال: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسُب ، الشهر هكذا وهكذا » يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٨] ونصها : وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

(٣) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا =

ولما قالوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ[1] . ردّ الله عليهم بقوله : « لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ »[1] . لكنهم أذعنوا لظهور الحجة . فدل على أن ذلك لعلمهم به وعجزهم عن مماثلته . وأدلة هذا المعنى كثيرة .

= فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن شيم . فصحّحت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه . وأبطلت ما هو باطل . وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه . فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء فى البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرّف منازل سير النيرين وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مقرر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة . كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »(١) . وقوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »(٢) . وقوله : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣) ۞ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ . . . »(٣) الآية . وقوله : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »(٤) . وقوله : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩٧] ونصها : وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٦] ونصها : وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

(٣) [٣٦ / يس / ٣٩و٤٠] ونصهما: وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٤) [١٠ / يونس / ٥] ونصها: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . . »[١] الآية . وقوله : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ »[٢] . وقوله : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . . »[٣] وما أشبه ذلك .

ومنها علوم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، فبيَّن الشرع حقها من باطلها ، فقال تعالى : « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . »[٤] الآية . وقال : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ »[٥] . وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً »[٦] . وقال : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »[٧] .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] ونصها : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً .

(٢) [٦٧ / الملك / ٥] ونصها : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٤) [١٣ / الرعد / ١٢و١٣] ونصها : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٦٨و٦٩] ونصها : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ .

(٦) [٧٨ / النبأ / ١٤] ونصها : وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً .

(٧) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] ونصها : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ .

خرّج الترمذىّ[1]: قال رسول الله ﷺ : وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، قال: شكركم. تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا . وفى الحديث[2] : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . . . الحديث . فى الأنواء .

وفى الموطأ مما انفرد به : إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة[3] . وقال عمر ابن الخطاب للعباس ، وهو على المنبر، والناس تحته : كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال له العباس: بقى من نوئها كذا وكذا .

فمثل هذا مبيِّن للحق من الباطل فى أمر الأنواء والأمطار . قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ . . . »[4] الآية . وقال : « اللهُ

---

(١) جامع الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٤ ـ حدثنا أحمد ابن منيع. عن علىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، قال ، شكركم . تقولون : مُطِرْنا بنوء كذا وكذا ونجم كذا وكذا » .

(٢) صحيح البخارىّ فى: ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٦ ـ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلّم. عن زيد بن خالد الجهنىّ أنه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت فى الليلة . فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما من قال مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب .

(٣) الموطأ فى : ١٣ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب الاستمطار بالنجوم ، ٥ ـ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أنشأت بَحْرِيَّةً ، ثم تشاءمتْ ، فتلك عين غُدَيْقَةٌ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٢٢] ونصها : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »(١) إلى كثير من هذا .

ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . وفى القرآن من ذلك ما هو كثير . وكذلك فى السنّة . ولكن القرآن احتفل فى ذلك . وأكثره من الإخبار بالغيوب التى لم يكن للعرب بها علم ، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون . قال تعالى : « ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . »(٢) الآية . وقال تعالى : « تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا . . . »(٣) وفى الحديث(٤) قصة أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى بناء البيت . وغير ذلك مما جرى .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٩] ونصها : وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

(٣) [١١/هود/٤٩] ونصها : تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون ، النسلان فى المشى.

عن ابن عباس فى حديث طويل جداً . . . قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله : إنى مطلع تركتى . فجاء فوافق إسماعيل وراء زمزم يصلح نبلا له . فقال : يا إسماعيل إن ربك أمرنى أن أبنى له بيتاً . قال : أطع ربك . قال: إنه أمرنى أن تعينى عليه . قال : إذَنْ أفعل ، أو كما قال .

قال : فقاما فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. قال: حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ على نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

ومنها ما كان أكثره باطلًا أو جميعه : علم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطلَ ، ونهت عنه . كالكهانة والزجر وخط الرمل . وأقرت الفأل . لا من جهة تطلب الغيب . فإن الكهانة والزجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تخرّص على علم الغيب من غير دليل . فجاء النبيّ ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحى والإلهام . وأبقى للناس من ذلك ، بعد موته عليه السلام ، جزءًا من النبوءة وهو الرؤيا الصالحة ، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة .

ومنها علم الطب : فقد كان فى العرب منه شىء ، لا على ما عند الأوائل ، بل مأخوذ من تجاريب الأميين ، غير مبنىّ على علوم الطبيعة التى يقررها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة ، ولكن على وجه جامع شاف قليل ، يطلع منه على كثير . فقال تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . . »[1] . وجاء فى الحديث التعريف ببعض الأدوية لبعض الأدواء ، وأبطل من ذلك ما هو باطل : كالتداوى بالخمر والرقى التى اشتملت على ما لا يجوز شرعاً .

ومنها التفنن فى علم فنون البلاغة، والخوض فى وجوه الفصاحة، والتصرف فى أساليب الكلام ، وهو أعظم منتحلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم . قال تعالى : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[2] .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] ونصها : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

ومنها ضرب الأمثال : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ »(١) إلا ضرباً واحداً ، وهو الشعر ، فإن الله نفاه وبرّأ الشريعة منه . قال تعالى فى حكايته عن الكفار : « وَقَالُوا أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »(٢) ، أى لم يأت بشعر ، فإنه ليس بحق ، ولذلك قال : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ . . . »(٣) الآية . وبيّن معنى ذلك فى قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ »(٤) فظهر أن الشعر ليس مبنيًّا على أصل ، ولكنه هيمان على غير تحصيل ، وقول لا يصدقه فعل ، وهذا مضاد لما جاءت به الشريعة إلا ما استثنى الله تعالى . فهذا أنموذج ينبهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأمية . وأما ما يرجع إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق ، وما ينضاف إليها ، فهو أول ماخوطبوا به ، وأكثر ما تجد ذلك فى السور المكية من حيث كان آنس لهم ، وأجرى على ما يتمدح به عندهم ، كقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ . . . »(٥) إلى آخرها . وقوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ

---

(١) [٣٠ / الروم / ٥٨] ونصها : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ٣٦] ونصها : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ .

(٣) [٣٦ / يس / ٦٩] ونصها : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ـ٢٢٦] ونصها: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(٥) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً »[١] إلى انقضاء تلك الخصال . وقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ »[٢] . وقوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »[٣] إلى غير ذلك من الآيات التى فى هذا المعنى ، لكن أدرج فيها ما هو أولى ، من النهى عن الإشراك والتكذيب بأمور الآخرة ، وشبه ذلك مما هو المقصود الأعظم ، وأبطل لهم ما كانوا يعدونه كرماً وأخلاقاً حسنة ، وليس كذلك . أو فيه من المفاسد ما يربى على المصالح التى توهموها ، كما قال تعالى: « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ »[٤] ثم بين مافيها من المفاسد، خصوصاً فى الخمر والميسر من إيقاع العداوة والبغضاء ، والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة . وهذا فى الفساد أعظم مما ظنوه فيها صلاحاً . لأن الخمر كانت عندهم تشجع الجبان ، وتبعث البخيل على البذل، وتنشط الكسالى. والميسر كذلك كان عندهم محموداً لما كانوا يقصدون به من

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(٢) [٧ [الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٣] ونصها : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٠] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إطعام الفقراء والمساكين ، والعطف على المحتاجين ، وقد قال تعالى: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا »(١) .

والشريعة إنما هى تخلّق بمكارم الأخلاق ، ولهذا قال عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٢) . إلا أن مكارم الأخلاق على ضربين :

أحدهما : ما كان مألوفا وقريبا من المعقول المقبول ، كانوا فى ابتداء الإسلام إنما خوطبوا به ثم لما رسخوا فيه . تمم لهم ما بقى ، وهو :

الضرب الثانى : وكان منه ما لا يعقل معناه من أول وهلة فأخّر حتى كان من آخره تحريم الربا وما أشبه ذلك ، وجميع ذلك راجع إلى مكارم الأخلاق . وهو الذى كان معهودا عندهم على الجملة . ألا ترى أنه كان للعرب أحكام عندهم فى الجاهلية أقرها الإسلام . كما قالوا فى القراض ، وتقدير الدية وضربها على العاقلة ، وإلحاق الولد بالقافة ، والوقوف بالمشعر الحرام ، والحكم فى الخنثى ، وتوريث الولد ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، والقسامة ، وغير ذلك مما ذكره العلماء ؟ ثم نقول : لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات ، وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك . ولما كان الباقى عندهم من شرائع الأنبياء شىء من شريعة إبراهيم عليه السلام ، أبيهم ، خوطبوا من تلك الجهة ودُعُوا إليها ، وأن ماجاء به محمد ﷺ هى تلك بعينها كقوله تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا »(٣) وقوله: « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) الموطأ فى : ٤٧ ـ كتاب حسن الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى حسن الخلق ، ٨ ـ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : بعثت لأتمم حسن الأخلاق .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ =

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ... »[1] الآية ـ غير أنهم غيروا جملة منها وزادوا واختلفوا . فجاء تقويمها من جهة محمد ﷺ . وأُخبروا بما أنعم الله عليهم مما هو لديهم وبين أيديهم ، وأُخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود فى تنعماتهم فى الدنيا ، لكن مبرأً من الغوائل والآفات التى تلازم التنعيم الدنيوىّ . كقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ... »[2] إلى آخر الآيات ـ وبيّن من مأكولات الجنة ومشروباتها ماهو معلوم عندهم . كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ماهو عندهم مألوف ، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم . بل أجمل ذلك فى لفظ الفاكهة . وقال تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[3] فالقرآن كله حكمة ، وقد كانوا عارفين بالحكمة ، وكان فيهم حكماء ، فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله . وكان فيهم أهل وعظ وتذكير ، كقس بن ساعدة وغيره . ولم يجادلهم إلا على طريقة مايعرفون من الجدل . ومن تأمل القرآن وتأمل كلام العرب فى هذه الأمور الثلاثة وجد الأمر سواء . إلا ما اختص به كلام الله من الخواص المعروفة . وسِرْ فى جميع ملابسات العرب هذا السير تجد الأمر كما تقرر . وإذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أُمّيّة لم تخرج عما ألفته العرب .

= مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٧] ونصها : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٧ـ٣٠] ونصها : وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

ثم قال الشاطبيّ :

« المسألة الرابعة »

ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب، ينبنى عليه قواعد :

منها ـ أن كثيرا من الناس تجاوزوا ، على الدعوى فى القرآن ، الحدّ. فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع مانظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها . وهذا ، إذا عرضناه على ما تقدم ، لم يصح .

وإلى هذا ، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه ، وما أودع فيه . ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدّعى ، سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلى ذلك . ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك لم يكن . فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقريرٌ لشىء مما زعموا . نعم ! تضمن علوماً هى من جنس علوم العرب ، أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره. أمَّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا ، وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ »(١) وقوله: « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ »(٢) ونحو ذلك، وبفواتح السور ، وهى مما لم يعهد عند العرب ، وبما نقل عن الناس فيها . وربما حكى من ذلك عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره أشياء .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. أوالمراد بالكتاب فى قوله : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » اللوح المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية . وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً كعدد الجمل الذى تعرّفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير . أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يدّعه أحد ممن تقدم ، فلا دليل فيها على ما ادعوه . وما ينقل عن علىّ أو غيره فى هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار، فى الاستعانة على فهمه، على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة . فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ماهو أداة له ضل عن فهمه ، وتقوّل على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

ومنها ـ أنه لابد فى فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم . فإن كان للعرب فى لسانهم عرف مستمر ، فلا يصح العدول عنه فى فهم الشريعة. وإن لم يكن ثَمّ عرف ، فلا يصح أن يجرى فى فهمها ما لا تعرفه . وهـذا جارٍ فى المعانى والألفاظ والأساليب . مثال ذلك : أن معهود العرب أن لا ترى الألفاظ تعبداً عند محافظتها على المعانى ، وإن كانت تراعيها أيضاً ، فليس أحد الأمرين عنـدها بملتزم ، بل قد تبنى على أحدهما مرّة ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً فى صحة كلامها واستقامته . والدليل على ذلك أشياء :

أحدها : خروجها فى كثير من كلامها على أحكام القوانين المطّردة، والضوابط المستمرة، وجريانها فى كثير من منثورها على طريق منظومها ، وإن لم يكن بها حاجة ، وتركها لما هو أولى فى مراميها . ولا يعد ذلك قليلاً فى كلامها ، ولا ضعيفاً ، بل هو كثير قوىّ ، وإن كان غيره أكثر منه .

والثانى : أن من شأنها الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها ، ولا يعدّ ذلك اختلافاً ولا اضطراباً إذا كان المعنى المقصود على استقامة . والـكافى من ذلك نزول القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف . وفى هـذا المعنى من الأحاديث وكلام السلف العارفين بالقرآن كثير . وقد استمر أهل القراآت على أن يعملوا بالروايات التى صحت عندهم ، مما وافق المصحف ، وأنهم فى ذلك قارئون للقرآن من غير شك ولا إشـكال ، وإن كانت بين القراءتين مايعده الناظر ببادى الرأى اختلافاً فى المعنى ، لأن معنى الـكلام من أوله إلى آخره على استقامة ، لا تفاوت فيـه ، بحسب مقصود الخطاب : كمالك وملك ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يخادعون إلا أنفسهم . لنبوئنهم من الجنـة غرفاً لنبوينهم من الجنة غرفاً .

إلى كثير من هذا ، لأن جميع ذلك لا تفاوت فيه بحسب فهم ما أريد من الخطاب ، وهذا كان عادة العرب . ألا ترى ما حكى ابن جنّى عن عيسى بن عمر ، وحكى عن غيره أيضاً ، قال : سمعت ذا الرمة ينشد :

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن عليها الصبا واجعل يديك لها سترا

فقلت : أنشدتنى : من بائس ، فقال : يابس وبائس واحد . فأنت ترى ذا الرمة لم يعبأ بالاختلاف بين البوس واليبس ، لمّا كان موضع البيت قائماً على الوجهين ، وصواباً على كلتا الطريقتين . وقد قال فى رواية أبى العباس الأحول : البوس واليبس واحد . يعنى بحسب قصد الكلام ، لا بحسب تفسير اللغة . وعن أحمد بن يحيى ، قال : أنشدنى ابن الأعرابىّ :

وموضع زير لا أريد مبيته كأنى به من شدة الروع آنس

فقال له شيخ من أصحابه : ليس هكذا ، أنشدتنا « وموضع ضيق » فقال : سبحان الله! تصحبنا منذ كذا وكذا ، ولا تعلم أن الزير والضيق واحد . وقد جاءت أشعارهم على روايات مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، يعلم من مجموعها أنهم ما كانوا يلتزمون لفظاً واحداً على الخصوص ، بحيث يعد مرادفه أو مقاربه عيباً أو ضعفاً . إلا فى مواضع مخصوصة لا يكون ما سواها من المواضع محمولاً عليها ، وإنما معهودها الغالب ما تقدم .

والثالث : أنها قد تهمل بعض أحكام اللفظ ، وإن كانت تعتبره على الجملة ، كما استقبحوا العطف على الضمير المرفوع المتصل مطلقاً ولم يفرقوا بين ما له لفظ ، وما ليس له لفظ ، فقبح « قمت وزيد » ، كما قبح « قام وزيد » وجمعوا فى الردف بين عمود ويعود ، من غير استكراه . وواو عمود أقوى فى المد . وجمعوا بين سعيد وعمود مع اختلافهما ، وأشباه ذلك من الأحكام اللطيفة التى تقتضيها الألفاظ فى قياسها النظرىّ ، لكنها تهملها وتُوليها جانب الإعراض ، وما ذاك إلا لعدم تعمقها فى تنقيح لسانها .

والرابع : أن الممدوح من كلام العرب ، عند أرباب العربية ، ما كان بعيداً عن تكلف الاصطناع . ولذلك ، إذا اشتغل الشاعر العربىّ بالتنقيح اختلف فى الأخذ عنه . فقد كان

الأصمعىّ يعيب الحطيئة . واعتذر عن ذلك بأن قال : وجدت شعره كله جيداً ، فدلنى على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع . إنما الشاعر المطبوع الذى يرمى بالكلام على عواهنه ، جيده ورديه . وما قاله هو الباب المنتهج ، والطريق المهيع عند أهل اللسان . وعلى الجملة فالأدلة على هذا المعنى كثيرة ، ومن زاول كلام العرب وقف من هذا على علم . وإذا كان كذلك ، فلا يستقيم للمتكلم فى كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسمه لسان العرب ، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعتنى العرب به ، والوقوف عند ما حدث .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

ومنها ـ أنه إنما يصح فى مسلك الأفهام والفهم، ما يكون عاماً لجميع العرب ، فلا يتكلف فيه فوق مايقدرون عليه ، بحسب الألفاظ والمعانى . فإن الناس فى الفهم وتأتى التكليف فيه ، ليسوا على وزان واحـد ولا متقارب . إلا أنهم يتقاربون فى الأمور الجمهورية وما والاها . وعلى ذلك جرت مصالحهم فى الدنيا . ولم يكونوا بحيث يتعمقون فى كل مهم ، ولا فى أعمالهم إلا بمقدار ما لا يخل بمقاصدهم . اللهم إلا أن يقصدوا أمراً خاصًّا ، لأناس خاصة . فذاك كالكنايات الغامضة ، والرموز البعيدة التى تخفى عن الجمهور ، ولا تخفى عمن قصد بها . وإلا كان خارجاً عن حكم معهودها . فكذلك يلزم أن ينزل فهم الكتاب والسنة بحيث تكون معانيه مشتركة لجميع العرب ، ولذلك أنزل القرآن على سبعة أحرف ، واشتركت فيه اللغات ، حتى كانت قبائل العرب تفهمه . وأيضاً فمقتضاه من التكليف لايخرج عن هذا النمط. لأن الضعيف ليس كالقوىّ ، ولا الصغير كالكبير، ولا الأنثى كالذكر ، بل كل له حد ينتهى إليه فى العبارة الجارية . فأخذوا بما يشترك الجمهور فى القدرة عليه ، وألزموا ذلك من طريقهم بالحجة القائمة والموعظة الحسنة ، ونحو ذلك . ولو شاء الله لألزمهم ما لا يطيقون ، ولكلفهم بغير قيام حجة ، ولا إتيانٍ ببرهان ، ولا وعظ ولا تذكير ، ولطوّقهم فهم ما لا يفهم ، وعلم ما لا يعلم ، فلا حجر عليه فى ذلك ، فإن حجة الملك قائمة « قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ »(١) لكن الله سبحانه خاطبهم من حيث عهدوا ، وكلفهم من حيث لهم القدرة على ما به كلفوا، وَغَدَوْا فى أثناء ذلك بما يستقيم به منآدهم ، ويقوى به ضعيفهم ، وتنتهض به عزائمهم ، من الوعد تارة ، والوعيد أخرى ، والموعظة الحسنة أخرى ، وبيان مجارى العادات فيمن سلف

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] ونصها : قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

من الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، إلى غير ذلك ممـا فى معناه . حتى يعلموا أنهم لم ينفردوا بهذا الأمر دون الخلق الماضين ، بل هم مشتركون فى مقتضاه ، ولا يكونون مشتركين إلا فيما لهم مُنّة على تحمله . وزادهم تخفيفاً دون الأولين ، وأجرى فوقهم فضـلًا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم. وقد خرّج الترمذىّ، وصححه عن أبىّ بن كعب،قال[1]: لقى رسول الله ﷺ جبريل فقـال : يا جبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الـكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط ، قال : يا محمد ! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . فالحاصل أن الواجب فى هذا المقام إجراء الفهم فى الشريعة على وزان الاشتراك الجمهورىّ الذى يسع الأميين ، كما يسع غيرهم .

(١) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٨٠ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

ومنها ـ أن يكون الاعتناء بالمعانى المبثوثة فى الخطاب هو المقصود الأعظم ، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعانى ، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها . وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية . فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ، والمعنى هو المقصود . ولا أيضاً كل المعانى . فإن المعنى الإفرادىّ قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبىّ مفهوماً دونه . كما لم يعبأ ذو الرمة ببائس ولا يابس ، اتكالاً منه على أن حاصل المعنى مفهوم . وأبين من هذا ما فى جامع الإسماعيلىّ المخرج على صحيح البخارىّ عن أنس بن مالك ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ[1] « فاكهة وأبًّا » قال : ما الأبُّ ؟ ثم قال : ما كلفنا هذا . أو قال : ما أمرنا بهذا . وفيه أيضاً عن أنس أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله[1] : « فاكهة وأبًّا » ما الأبّ ؟ فقال عمر : نهينا عن التعمق والتكلف . ومن المشهور[2] تأديبه لضبيع

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

وقال أبو عبيد أيضاً : عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبًّا) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر .

وقال محمد بن سعد : ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى ظهر قميصه أربع رقاع . فقرأ (وفاكهة وأبًّا) فقال : فما الأبّ ؟ ثم قال : هو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه ؟

(٢) جاء فى مسند الدارمىّ ، بالباب الثانى عشر من المقدمة ـ باب كراهية الفتيا ـ ما يأتى :

أخبرنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ، ثنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن . فأرسل إليه عمر ، وقد أعدّ له =

حين كان يكثر السؤال عن المرسلات والعاصفات ونحوها . وظاهر من هذا كله أنه إنما نهى عنه لأن المعنى التركيبىّ معلوم على الجملة، ولا ينبنى على فهم هذه الأشياء حكم تكليفىّ، فرأى أن الاشتغال به عن غيره ، مما هو أهم منه ، تكلف . ولهذا أصلٌ فى الشريعة صحيح ، نبَّهَ عليه قوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . »[1] إلى آخر الآية . فلو كان فهم اللفظ الإفرادىّ يتوقف عليه فهمُ التركيبىّ لم يكن تكلفاً ، بل هو

= عراجين النخل . فقال : من أنت ؟ قال : عبد الله صبيغ . فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه ، وقال : أنا عبد الله عمر . فجعل له ضرباً حتى دمّى رأسه . فقال : يا أمير المؤمنين ! حسبك . قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى .

وفيه أيضاً : أخبرنا عبد الله بن صالح . حدثنى الليث . أخبرنى ابن عجلان عن نافع مولى عبدالله أن صبيغاً العراقىّ جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر . فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب . فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال : أين الرجل؟ فقال: فى الرَّحْل . فقال عمر: أبصرْ أن يكون ذهب فتصيبك منى به العقوبةالموجعة. فأتاه فقال عمر: تسأل محدَثةً؟ فأرسل إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة. ثم تركه حتى برَأ . ثم عاد له . ثم تركه حتى برأ . فدعا به ليعود له قال فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا ، وإن كنت تريد أن تداوينى ، فقد ، والله ، برأتُ . فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبى موسى الأشعرىّ أن لايجالسه أحدمن المسلمين . فاشتد ذلك على الرجل. فكتب أبو موسى إلى عمر أنه قد حسنت توبته . فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٧] ونصها : لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

مضطر إليه . كما روى عن عمر نفسه فى قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(١) فإنه سأل عنه على المنبر . فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص . ثم أنشده :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدًا كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ(٢)

فقال عمر : أيها الناس! تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم. فليس بين الخبرين تعارض . لأن هذا توقف فهم معنى الآية عليه ، بخلاف الأول . فإذا كان الأمر هكذا فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب ، لأنه المقصود والمراد . وعليه ينبنى الخطاب ابتداءً . وكثيراً ما يُغْفَل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة ، فتلتمس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذى ينبغى ، فتستبهم على الملتمس ، وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العرب ، فيكون عمله فى غير معمل ، ومشيه على غير طريق . والله الواقى برحمته .

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٧] ونصها : أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِن رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) جاء فى الأمالى ، ج ٢ ص ١١٢ ما يأتى :

قال أبوعلىّ : التامك : المرتفع من السنام . والقَرِدُ : المتلبد بعضه على بعض . والسَّفَنُ : المبرد .

وقال شارح شواهد الكشاف : يصف ناقة أثَّر الرحل فى سنامها وتنقص منها كما ينقص السفن من العود .

فصل

فى أن بيـان الصحابة حجة إذا أجمعوا

قال الشاطبيّ فى الموافقات : بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشـكال فى صحته . لأنه لذلك بعث . قال تعـالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) ولا خلاف فيه . وأما بيان الصحابة ، فإن أجمعوا على ما بينوه ، فلا إشـكال فى صحته أيضاً . كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبيّن لقوله تعالى : «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا»(٢) وإن لم يجمعوا عليه ، فهل يكون بيانهم حجة أم لا ؟ هذا فيه نظر وتفصيل، ولـكنهم يترجح الاعتماد عليهم فى البيان من وجهين :

أحدهما : معرفتهم باللسان العربيّ ، فإنهم عرب فصحاء ، لم تتغير ألسنتهم ، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتُهُمْ ، فهم أعرف فى فهم الـكتاب والسنة من غيرهم ، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان ، صح اعتماده من هذه الجهة .

والثانى : مباشرتهم للوقائع والنوازل ، وتنزيل الوحى بالـكتاب والسنة ، فهم أقعد فى فهم القرائن الحالية ، وأعرف بأسباب التنزيل ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك . والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات ، أو تخصيص بعض العمومات ، فالعمل عليه صواب .

هذا ، إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف فى المسألة . فإن خالف بعضهم، فالمسألة اجتهادية.

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . .

مثاله قوله عليه السلام : لا يزال النـاس بخير ما عجلوا الفطر[١] ، فهذا التعجيل يحتمل أن يقصد به إيقاعه قبـل الصلاة ، ويحتمل أن لا . فـكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يصليان المغرب قبل أن يفطرا . ثم يفطران بعد الصلاة ، بياناً أن هـذا التعجيل لايلزم أن يكون قبل الصلاة ، بل إذا كان بعد الصلاة فهو تعجيل أيضاً ، وأن التأخير الذى يفعله أهل المشرق شيء آخر ، داخل فى التعمق المنهىّ عنه ، وكذلك ذكر عن اليهود أنهم يؤخرون الإفطار فندب المسلمون إلى التعجيل. وكذلك قال عليه السلام : لاتصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه[٢] ، احتمل أن تـكون الرؤية مقيدة بالأكثر ، وهو أن يرى بعد غروب الشمس . فبيّن عثمان أن ذلك غير لازم ، فرأى الهلال فى خلافته قبل الغروب ، فلم يفطر حتى أمسى وغابت الشمس .

وتأمل . فعادة مالك بن أنس فى موطئه وغيره الإتيـان بالآثار عن الصحابة . مبيناً بها السنن ، وما يعمل به منها ، وما لا يعمل به . وما يقيّد به مطلقاتها . وهو دأبه ومذهبه لما تقدم ذكره .

ومما بَيَّنَ كلامُهم اللغةَ أيضاً. كما نقل مالك فى دلوك الشمس وغسق الليل كلام ابن عمر وابن عباس، وفى معنى السعى عن عمر بن الخطاب أعنى قوله تعالى : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ

---

(١) سنن أبى داود فى : ١٤ ـ كتاب الصوم ، ٢٠ ـ باب مايستحب من تعجيل الفطر ح ٣٥٣ ، ونصه :

عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرا ما عجّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرونه » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١١ ـ باب قول النبىّ ﷺ إذا رأيتم الهلال ... الخ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال « لاتصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه . فإن غم عليكم فاقدروا له » .

وَذَرُوا الْبَيْعَ »[1] . وفى معنى الأخوة أن السنة قضت أن الأخوة اثنان فصاعدا . كما تبين بكلامهم معنى الكتاب والسنة .

لايقال: إن هذا المذهب راجع إلى تقليد الصحابىّ ، وقد عرفت مافيه من النزاع والخلاف. لأنا نقول: نعم. هو تقليد ، ولكنه راجع إلى مالا يمكن الاجتهاد فيه على وجهه ، إلّا لهُمْ ، لما تقدم من أنهم عرب ، وفرق بين من هو عربىّ الأصل والنحلة وبين من تعرّب : (غلب التطبع شيمةُ المطبوع) وأنهم شاهدوا من أسباب التكاليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهد مَن بعدهم . ونقلُ قرائن الأحوال على ما هو عليه كالمتعذر ، فلابد من القول بأن فهمهم فى الشريعة أتم وأحرى بالتقديم . فإذا جاء فى القرآن أو فى السنة من بيانهم ما هو موضوع موضع التفسير ، بحيث لو فرضنا عدمه ، لم يمكن تنزيل النص عليه على وجهه ، انحتم الحكم بإعمال ذلك البيان ، لما ذكر ، ولما جاء فى السنة من اتباعهم والجريان على سننهم . كما جاء فى قوله عليه السلام : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ[2] ، وغير ذلك من الأحاديث فإنها عاضدة بهذا المعنى فى الجملة . أما

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) سنن أبى داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب فى لزوم السنة ، ح ٤٦٠٧ ونصه :

عن العرباض : صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم . ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال قائل: يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًّا . فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

إذا علم أن الموضع موضع اجتهاد لا يفتقر إلى ذينك الأمرين فَهُمْ وَمَن سواهم فيه شَرَع ، سواء . كمسألة العَوْل والوضوء من النوم، وكثير من مسائل الربا التى قال فيها عمر بن الخطاب: مات رسول الله ﷺ ولم يبين لنا آية الربا . فدعوا الربا والريبة . أو كما قال .

فمثل هذه المسائل موضع اجتهاد للجميع ، لا يختص به الصحابة دون غيرهم من المجتهدين. وفيه خلاف بين العلماء أيضاً . فإن منهم من يجعل قول الصحابىّ ورأيه حجة يرجع إليها ويعمل عليها من غير نظر، كالأحاديث والاجتهادات النبوية . وهو مذكور فى كتب الأصول. فلا يحتاج إلى ذكره ههنا .

فصل

فى أن كل حكاية فى القرآن لم يقع لها ردّ فهى صحيحة

قال الشاطبىّ : كل حكاية وقعت فى القرآن ، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ، وهو الأكثر ، ردٌّ لها أوْ لَا ، فإن وقع رد فلا إشكال فى بطلان ذلك المحكىّ وكذبه . وإن لم يقع معها رد ، فذلك دليل على صحة المحكىّ وصدقه .

أما الأول فظاهر ولا يحتاج إلى برهان . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ »(١) فأعقب بقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ... »(١) الآية . وقال: « وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ...»(٢) الآية ، فوقع التنكيت على افتراء مازعموا بقوله: « بِزَعْمِهِمْ » وبقوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»(٢) وقالوا «هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ »(٣) إلى تمامه. وردّ بقوله: «سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»(٣)

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ونصها : وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَمَا كَانَ لِلهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

(٣) [٦ / الأنعام / ١٣٨] ونصها : وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

ثم قال : « وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰـذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ . . . »[١] الآية ، فنبه على فساده بقوله : « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ »[١] زيادة على ذلك . وقال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰـذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ »[٢] فرد عليهم بقوله : « فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا »[٢] ثم قال : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . . . »[٣] الآية. فرد بقوله : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ . . . »[٣] الآية . ثم قال : « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا »[٤] ثم قال تعالى : « انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا »[٥] وقال تعالى : « وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا »[٦]

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰـذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٤] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥و٦] ونصهما : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٨] ونصها : أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا .

(٥) [٢٥ / الفرقان / ٩] ونصها : انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

(٦) [٣٨ / ص / ٤ ـ ٨] ونصها : وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ، إِنَّ هٰـذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ =

إلى قوله : « ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » ثم رد عليهم بقوله : « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي » إلى آخر ما هنالك . وقال : « وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا »(١) ثم ردّ عليهم بأوجه كثيرة ثبتت فى أثناء القرآن كقوله : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(٢) وقوله : « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٣) وقوله : « سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ . . . »(٤) الآية ، وقوله : « تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ »(٣) إلى آخره وأشباه ذلك .

ومن قرأ القرآن وأحضره فى ذهنه عرف هذا بيُسْرٍ .

وأما الثانى ـ فظاهر أيضاً . ولكن الدليل على صحته من نفس الحكاية وإقرارها ، فإن القرآن سمى فرقاناً وهدًى وبرهاناً وبياناً وتبياناً لكل شىء ، وهو حجة الله على الخلق ، على الجملة والتفصيل ، والإطلاق والعموم . وهذا المعنى يأبى أن يُحكى فيه ماليس بحق ، ثم لا ينبَّه عليه .

= مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ .

(١) [٢ / البقرة / ١١٦] ونصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٦] نصها : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ .

(٣) [١٠ / يونس / ٦٨] ونصها : قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [١٩ / مريم / ٨٨ ـ ٩٥] ونصها : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا .

وأيضاً فإن جميع ما يحكى فيه من شرائع الأولين وأحكامهم ولم ينبه على إفسادهم وافترائهم فيه ، فهو حق يجعل عمدة ، عند طائفة ، فى شريعتنا . ويمنعه قوم ، لا من جهة قدح فيه، ولكن من جهة أمر خارج عن ذلك . فقد اتفقوا على أنه حق وصدق كشريعتنا. ولا يفترق ما بينهما إلا بحكم النسخ فقط ، ولو نبه على أمر فيه لكان فى حكم التنبيه على الأول، كقوله تعالى : « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ... »[1] الآية ، وقوله : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ . . . »[2] الآية ، وكذلك قوله تعالى: « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ »[3] فصار هذا من النمط الأول .

ومن أمثلة هذا القسم جميع ما حكى عن المتقدمين من الأمم السالفة مما كان حقًّا . كحكايته عن الأنبياء والأولياء . ومنه قصة ذى القرنين ، وقصة الخضر مع موسى عليه السلام ، وقصة أصحاب الكهف . وأشباه ذلك .

---

(١) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤١] ونصها : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٤/النساء/٤٦] ونصها: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

وَلِاطِّراد هذا الأصل اعتمده النظار . فقد استدل جماعة من الأصوليين على أن الكفار مخاطبون بالفروع بقوله تعالى: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ...»(١) الآية ، إذ لو كان قولهم باطلًا لَرُدَّ عند حكايته . واستدل على أن أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بأن الله تعالى لما حكى من قولهم إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم وإنهم خمسة سادسهم كلبهم ، أعقب ذلك بقوله : « رَجْمًا بِالْغَيْبِ »(٢) ، أى ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن . ورجم الظنون لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ولما حكى قولهم سبعة وثامنهم كلبهم لم يتبعه بإبطالٍ ، بل قال : « قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ »(٢) دَلَّ المساقُ على صحته دون القولين الأولين . وروى عن ابن عباس أنه كان يقول : أنا من ذلك القليل الذى يعلمهم . ورأيت منقولًا عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن قول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ »(٣) فقيل له : أكان شاكّا حين سأل ربه أن يريه آية ؟ فقال: لا ، وإنما كان طلب زيادة إيمان إلى إيمان . ألا تراه قال: «أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى»(٣)

---

(١) [٧٤/المدثر/٤٣و٤٤] ونصهما : قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ.

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٢] ونصها: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٦٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فلو علم منه شكا لأظهر ذلك . فصح أن الطمأنينة كانت على معنى الزيادة فى الإيمان . بخلاف ما حكى الله عن قوم من الأعراب فى قوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا »[1] فإن الله تعالى رد عليهم بقوله : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ »[1] .

ومن تتبع مجارى الحكايات فى القرآن ، عرف مداخلها وما هو منها حق مما هو باطل. فقد قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ »[2] إلى آخرها ، فإن هذه الحكاية ممزوجة الحق بالباطل ، فظاهرها حق وباطنها كذب ، من حيث كان إخباراً عن المعتقد ، وهو غير مطابق ، فقال تعالى : « وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ »[2] تصحيحاً لظاهر القول . وقال: « وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » إبطالاً لما قصدوا فيه . وقال تعالى: « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[3] الآية ، وسبب نزولها ما خرجه الترمذىّ ، وصححه عن ابن عباس ، قال[4] : مر يهودىّ

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] ونصها : قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ١] ونصها: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٤) جامع الترمذىّ عن ابن عباس فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٤ ـ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ...

والرواية الأخرى أخرجها البخارىّ فى صحيحه فى: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٩ ـ باب قول الله تعالى لما خلقت بيدىّ ، عن عبد الله بن مسعود .

بالنبىّ ﷺ ، فقال له النبىّ ﷺ : حدثنا يا يهودىّ ! فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه (وأشار الراوى بخنصره أولًا ثم تابع حتى بلغ الإبهام) فأنزل الله « وما قدروا الله حق قدره » . وفى رواية أخرى : جاء يهودىّ إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمد ! إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ! فضحك النبىّ ﷺ حتى بدت نواجذه . قال : « وما قدروا الله حق قدره » . وفى رواية فضحك النبىّ ﷺ تعجباً وتصديقاً . والحديث الأول كأنه مفسر لهذا، وبمعناه يتبين معنى قوله : « وما قدروا الله حق قدره » فإن الآية بينت أن كلام اليهودىّ حق فى الجملة ، وذلك قوله : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وأشارت إلى أنه لم يتأدب مع الربوبية وذلك ـ والله أعلم ـ لأنه أشار إلى معنى الأصابع بأصابع نفسه ، وذلك مخالف للتنزيه للبارى سبحانه ، فقال : « وما قدروا الله حق قدره » .

وقال تعالى : « وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »(١) أى يسمع الحق والباطل، فرد الله عليهم فيما هو باطل وأحق الحق، فقال : «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ»(١) الآية ، ولما قصدوا الأذيّة بذلك الكلام قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١) . وقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ »(٢) فهذا منهم امتناع عن الإنفاق بحجة، قصدهم فيها الاستهزاء ، فرد عليهم بقوله : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فى ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢)

(١) [٩ / التوبة / ٦١] ونصها : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) [٣٦ / يس / ٤٧] ونصها: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

لأن ذلك حَيْد عن امتثال الأمر . وجواب « أنفقوا » أن يقال: « نعم أوْ لا » وهو الامتثال أو العصيان . فلما رجعوا إلى الاحتجاج على الامتناع بالمشيئة المطلقة التى لا تعارض ، انقلب عليهم من حيث لم يعرفوا . إذ حاصلهم أنهم اعترضوا على المشيئة المطلقة بالمشيئة المطلقة ، لأن الله شاء أن يكلفهم الإنفاق ، فكأنهم قالوا : كيف يشاء الطلبَ منا ، ولو شاء أن يطعمهم لأطعمهم ، وهذا عين الضلال فى نفس الحجة . وقال تعالى : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ »(١) إلى قوله : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » فقوله: « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ »(١) تقرير لإصابته عليه السلام ـ فى ذلك ، الحكم ـ ، وإيماء إلى خلاف ذلك فى داود عليه السلام ، لكن لما كان المجتهد معذوراً مأجوراً بعد بذله الوسع ، قال : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً »(١) وهذا من البيان الخفىّ فيما نحن فيه .

قال الحسن: والله ! لولا ماذكر الله من أمر هذين الرجلين لرأيت أن القضاة قد هلكوا. فإنه أثنى على هذا بعلمه ، وعذر هذا باجتهاده . والنمط هنا يتسع ، ويكفى منه ما ذكر ، وبالله التوفيق .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧٨و٧٩] ونصهما: وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، وإنما هي عبرة للناس. كما قال تعالى في سورة هود ، بعدما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. »(١) الخ ، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ ، ويؤتى فيها بالجرّة وأُذن الجرة ، كما في بعض الكتب، التي تسميها الملل الأخرى مقدسة . وللعبرة وجوه كثيرة . وفي تلك القصص فوائد عظيمة ، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشريّ ، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية . وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع من كتابه كقوله : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ »(٢) . وقوله : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »(٣) . يذكر أمثال هــذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق والإعراض عنه ، والغرور بما أوتوا ، ونحو ذلك . فالآية الأولى جاءت في سياق الكلام عن المعرضين عن الحق لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلته لانهماكهم في ترفهم وسرفهم ، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم . والآية الثانية : جاءت في سياق محاجة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء ، وبعد الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار في الأرض ، وكيف هلكوا بعدما دعوا إلى الحق والتهذيب فلم يستجيبوا ، لما صرفهم من الغرور بما كانوا فيه ، ولم ينفعهم إيمانهم عند ما نزل بهم بأس الله وحلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال في الكفر وآثاره السوءى . وليس المراد ، بنفي كون قصص القرآن تاريخاً، أنّ التاريخ شيء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه. كلا . إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ .

---

(١) [١١ / هود / ١٢٠] ونصها : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ١٣] ونصها : لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] ونصها : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

فمثل ما فى القرآن من التاريخ البشرىّ كمثل ما فيه من التاريخ الطبيعىّ من أحوال الحيوان والنبات والجماد ، ومثل ما فيه من الكلام فى الفلك . يراد بذلك كله التوجيه إلى العبرة والاستدلال على قدرة الصانع وحكمته ؛ لا تفصيل مسائل العلوم الطبيعية والفلكية التى مكن الله البشر من الوقوف عليها بالبحث والنظر والتجربة ، وهَدَاهُمْ إلى ذلك بالفطرة وبالوحى معاً .